جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثالثة
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

المكتب الإسلامي
بيروت : ص.ب ٣٧٧١/١١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقيًا : إسلاميا
دمشق : ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقيًا : إسلاميّ

ويضمن استمرار مظاهر الحياة فيه، ويكفل للإنسان بقاءه، هو نور الكون، وقيوم الوجود الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، والذي عم خيره الكائنات وشمل فضله كل شيء.

والواقع أن الدعوة إلى الحق، هي هدف كل مؤمن مصلح صبار، وإنه ليلتمس لها كل سبيل، ويستعين إليها بكل وسيلة استجابة لأمر الله، الذي لا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد، وذلك ليخفف من مظاهر الشر، ويقلل من عوامل الفتنة، ويساعد ما تيسّر له في بلسمة جراح الناس، وكفكفة معاناتهم المعاشية والاجتماعية، ويسلك معهم سبيل الأبرار والصالحين.

وفضلاً عن أن الدعوة إلى الحق مفتاح مبارك، يخول حامله شق طريق الخير والبر، وفتح باب الرحمة واللطف، والرعاية الربّانية.. وهو لا بدّ مع الاستعانة بالله، وحسن القصد، وطيب الخلق والصبر، واصل إلى النور والهدى، ثم إلى الفوز بالرضى العميم.

ومثل هذا الكتاب، يمارس دوراً حواريّاً بناءً مع كل قارىء حصيف، واسع المدارك، يطلب الحق وينشد المعرفة الصحيحة، بعيداً عن التشنجات، ومجرداً من العواطف والاحاسيس المسبقة التي تحمل الحب أو الكره، والقبول والرفض، لأنه يعالج موضوعات هامة تتصل بالتوراة وبالانجيل وبالقرآن، وأنها ولا ريب ستفتح له آفاقاً جديدة، وتدخل به في أجواء من المقابلة والمقارنة والدرس والتمحيص، وتبتعث لديه أفكاراً تتصل بالعلاقات الأصيلة بين هذه الكتب، فتعود به إلى الجذور وتكشف له أموراً ما كان يمكنه الوصول إليها، بعيداً عن مثل هذه القراءة، وتعرفه إلى معالم نورانية تريه الحقيقة ناصعة، فيقدّرها حق قدرها، ويبدأ بأن يفكر من أين ينبغي له أن يبدأ. فضلاً عن أنه سيرى الطريق الصحيح، الذي

مقدّمة الكتاب

كانت الحقيقة وما تزال ضالة الإنسان وهدفه المنشود، فقد شغلت فكره في كل مجال، في مجال العقيدة في الخالق وجوداً وذاتاً ونوعاً، والكون منشأ ونظاماً وتطوراً ومآلاً، وفي أنظمة سلوك الإنسان وذاته ومعاشه ونوع علاقاته مع ربه، ومع أخيه الإنسان ومدى ما يستفاد منها لضمان سعادته وأمنه ورخائه...

ولقد وصل حتى الآن إلى حقائق، التقى فيها مع أخيه الإنسان كحقيقة وجود الله الخالق لكل شيء والقادر على كل شيء. وكحقيقة خلق الكون وحدوثه وأصل نشأته ومصيره وتغيره، وحقائق القيم الإنسانية ونقائضها، وبعثة الرسل ونزول الوحي والكتب ووجود الملائكة والجن والمعاد والحساب والعقاب والقضاء والقدر والجنة والنار وغيرها.

ولكنه مع ذلك ظل يختلف في حدود وأوصاف ونوعية هذه الحقائق خلافاً قائماً على مسوغات ومبررات فكرية أو بغياً أو اتباعاً للهوى وانجرافاً مع مغرياته يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ (١). ويقول: ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ﴾ (٢) ويقول: ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. وما اختلف فيه إلا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ (٣) ويقول: ﴿ لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون﴾ (٤).

---

(١) الجاثية: ١٦-١٧.

(٢) يونس: ١٩.

(٣) البقرة: ٢١٣.

(٤) الزخرف: ٧٨.

لقد ترجمناه لأنه كشف النقاب عن كثير من الحقائق التي سبق ولفت القرآن الكريم النظر إليها والتي تساعد كثيراً من مفكري عصرنا المخلصين على تجلية أمور هي في صالح المجتمعات الإنسانية.

ولأن كثيراً من المسلمين بخاصة، بل من مفكريهم في غفلة عن هذه الحقائق التي اهتدى هذا الكاتب الكبير إليها فرغبنا في أن نضعها تحت أعينهم، ولكن هذه المرة من كاتب مخالف لهم ومفكر بعيد عنهم...

وحرصا على خدمة الحق والفكر الصافي والبر الطاهر النقي، واندفاعا وراء مصلحة الإنسان الصالح الذي غشت بصره وقلبه اخبار ملفقة وأفكار خاطئة ونظرات منحرفة علنا نسهم بجهد متواضع لكشف اللثام عن الحق وجلاء صورته ليراها كل الناس على السواء.

وبعد، فإن هذا الكتاب هو في نظرنا قيمة دينية وفكرية وانسانية صالحة ومخلصة وان كنا نختلف مع صاحبه في عديد من النظرات، أجبرنا أن يكون لنا نصيب في المساهمة بوضعه بين يدي مجموعات من أبناء هذه المنطقة المتحضرة من العالم وفي هذا العصر، عصر الاشعاع الذي لم يتمكن رغم دفقات نور العلم والتكنولوجيا الحديثة فيه أن ينجي أجياله ومجتمعاته من دياجير ظلام الضلال والانحراف والبهتان والشر.

بيروت ١٤ ربيع الأول ١٣٩٨

٢١ شباط ١٩٧٨

أما الوحي القرآني الذي نزل عقب ستة قرون من المسيح، فقد احتفظ بالعديد من تعاليم التوراة والإنجيل اللذين أكثر من ذكرهما؛ بل وفرض على كل مسلم الإيمان بالكتب السابقة[1] كما ابرز المكانة المهمة التي شغلها في تاريخ الوحي رسل الله، كنوح وابراهيم وموسى وعيسى، الذي كان فيهم في مقام مرموق. وقد اظهر القرآن ولادته، كما في الاناجيل، كحدث معجز، كما كرم والدته مريم تكريماً خاصاً واطلق اسمها على إحدى سوره وهي سورة مريم.

ولا مفر من الاعتراف بأن هذه التعاليم الإسلامية مجهولة على العموم في بلادنا الغربية. وقد يعجب البعض من هذا، ولكن سرعان ما يزول ذلك إذا ذكرنا الطريقة التي لقن بها العديد من الأجيال قضايا الإنسانية الدينية، والجهالة التي تركوا فيها تجاه كل ما يخص الإسلام. أليس هدف اطلاق التسميات «الدين المحمدي» و «المحمديين» حتى في أيامنا هذه، غرس الاعتقاد الخاطىء في الأذهان بأنها تتعلق بعقائد منتشرة بفعل الإنسان، وليس لله فيها (في مفهوم المسيحيين) أي مكان. وأن كثيراً من مثقفينا المعاصرين يعنون بمقومات الإسلام الفلسفية والاجتماعية والسياسية ثم لا يتساءلون كما هو واجب، عن ماهية الوحي الإسلامي. انهم يطرحون ــ كقاعدة ثابتة ــ استناد محمد على ما سبقه ليبعدوا بهذه الطريقة عن الذهن كل اتصال له بمسألة الوحي بالذات.

وإلى جانب هذا، أي ازدراء لم يجابه به المسلمون في بعض الأوساط المسيحية؟ لقد لمست ذلك عندما حاولت عقد حوار للمقابلة بين نصوص توراتية ونصوص قرآنية، تتناول موضوعاً واحداً. ولاحظت الرفض المبدئي لمجرد اعتبار ما يتضمنه القرآن في الموضوع المطروح، كما لو كان الاستشهاد بالقرآن بمثابة انتماء إلى الشيطان!

ويظهر أن ثمة تغيراً جذرياً يتم في أيامنا على أعلى مستوى في العالم المسيحي. والوثيقة التي صدرت عن أمانة سر الفاتيكان، ووزعت فيما بعد عن المجمع الفاتيكاني الثاني لغير المسيحيين، وفيها توجيهات للحوار بين المسيحيين والمسلمين، وكانت ثالث طبعاتها بتاريخ ١٩٧٠ تشهد بعمق التغير في المواقف

(١) النساء ١٣٦.

ثم استقبل المجلس المسكوني لكنائس جنيف علماء الجزيرة، كما استقبلهم المطران «إلْشِنْجَر» أسقف استراسبورغ، ودعاهم إلى إقامة صلاة الظهر في كاتدرائيته وأمامه. ولئن كان الأمر قد أعلن عنه، فمن قبيل المظاهرة أكثر منه من قبيل تقدير معناه الديني العظيم. وعلى كل حال فقد كانوا قلائل أولئك الذين سألتهم عن هذه المظاهر وأجابوا بأنهم علموا بها!!

هذا وسيكون انفتاح البابا بول السادس على الإسلام باعلانه شخصياً «أنه مشحون بإيمان عميق بتوحيد العالمين الإسلامي والمسيحي اللذين يعبدان إلهاً واحداً» مبدأ تاريخ العلاقات بين الدينين. ولقد بدا لي ضرورياً هذا التذكير بمشاعر رئيس الكنيسة الكاثوليكية تجاه المسلمين، لأن كثيرين من المسيحيين المطبوعين على العداوة للإسلام، كما اسفت له الوثيقة الصادرة عن الفاتيكان المشار إليها سابقاً، هم في الأساس أعداء لكل تفكير يصدر عنه. ومن هنا بقوا في جهل واقعه، وبقي تصورهم للوحي الإسلامي في ضلال مبين.

ومهما يكن فإنه يبدو من الحق أنه عندما نريد درس وجه من وجوه الوحي لدى أحد أديان التوحيد الثلاثة، أن ندخل إليه بالمقابلة مع ما يكون للدينين الآخرين من نظرة في النقطة نفسها، لأن الدراسة الشاملة في مسألة ما تكون أكثر فائدة من دراسة منفصلة. ومقابلة بعض الموضوعات المعالجة في الكتب المقدسة مع معطيات العلم في القرن العشرين، تهم بالتالي الأديان الثلاثة دونما استثناء. ثم ألا تشكل هذه، بل ألا ينبغي لها أن تشكل كتلة أكثر تماسكاً في تقاربها، فيما هي جميعها مهددة في أيامنا بالاكتساح المادي؟! في حين تستوي البلاد المتأثرة باليهودية ــ المسيحية مع البلاد الإسلامية في القول ــ وبخاصة في الأوساط العلمية ــ بأن الدين والعلم لا يلتقيان[1]. ولكي تعالج المسألة بمجموعها تتطلب ترسعات مهمة. وهدفي هنا ألا أتناول سوى وجه من الموضوع وهو اختبار الكتب المقدسة في ضوء المعارف العلمية الحديثة.

---

(١) هذا كلام إن صح قبوله لدى علماء الدين اليهودي أو علماء النصرانية، فإنه مرفوض لدى علماء الإسلام الذين يعتزون ويفتخرون ويؤكدون أن الدين والعلم توأمان لا غنى لأحدهما عن الآخر. راجع الفقرة الأخيرة من هذا الفصل. المترجم.

لم تكن الأحاديث والأناجيل سوى شهادات بشرية عن وقائع ماضية. وسنرى خلافاً لما يفكر فيه الكثيرون، أن مؤلفي الأناجيل الأربعة المعترف بها لم يكونوا شهود عيان للأحداث التي يروونها، وكذلك بالنسبة إلى أكثر مجموعات الحديث جدية. وينبغي أن تتوقف المقارنة عند هذا الحد، لأنه إن جاز نقاش أصالة هذا الحديث أو ذاك، فلقد كان بالنسبة إلى الأناجيل موقف الكنيسة الحاسم في عصورها الأولى في أمر العديد منها إذ أعلنت اعتماد أربعة منها فقط رغم وجود التناقضات فيما بينها في كثير من النقاط، وأمرت باخفاء الأخرى التي وصفت بأنها مشكوك فيها.

وثمة فرق أساسي آخر بين المسيحية والإسلام فيما يتعلق بالكتب المقدسة، ذلك هو غياب النص الموحى به ــ والمحدد في الوقت نفسه ــ عند المسيحية، بينما يملك الإسلام القرآن الذي يحقق هذا التعريف.

إن القرآن هو نص الوحي المنزل على محمد ﷺ من سيد الملائكة جبريل لأنه قد كتب في الحال. ثم حفظه المؤمنون عن ظهر قلب، وكانوا يردّدونه أثناء صلواتهم، وبخاصة طيلة شهر رمضان. وقد رتب محمد ﷺ آياته في سور، جمعت مباشرة عقب وفاته، والفت في عهد الخليفة عثمان (٢٣-٣٥ هـ) الكتاب الذي هو بين أيدينا وخلافاً لما جرى في الإسلام، فإن الوحي المسيحي انبنى على شهادات إنسانية متعددة وغير مباشرة، لأننا لا نملك أية شهادة من شاهد عاين حياة المسيح، خلافاً لما يتصوره كثير من المسيحيين... وهكذا تجدها مطروحة مسألة أصالة نصوص الوحي المسيحي والوحي الإسلامي.

لقد كانت مقابلة نصوص الكتاب المقدس بمعطيات العلم طوال الزمن موضع تفكير الإنسان. وتوافق الكتب والعلم كان عنصراً ضرورياً لأصالة النصوص المقدسة. وقد رسخ القديس أوغسطين فيما بعد هذه القاعدة في رسالته رقم ٨٢ التي سنوردها فيما بعد. وقد لوحظ، مع تطور المعرفة، وجود اختلافات بين نص التوراة والعلم. فتقرر عدم المقابلة بينهما. ويجب الاعتراف أنه بهذه الطريقة برز

=النساء ١٥٦-١٥٧ (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وأن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً. بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾. وعند هذا النص يحسن الوقوف وعدم الضرب في الاراء والظنون. المترجم.

اكتشفنا آثار أعمال إنسانية ترجع دونما ريب إلى عشرة آلاف سنة قبل الميلاد. فلا يجوز إذن اعتبار النص التوراتي لسفر التكوين كما لو كان صحيحاً. إذ يذكر السلالات البشرية، والتواريخ التي تحدد بداية الإنسان (خلق آدم). إنها ترجع إلى سبعة وثلاثين قرناً قبل المسيح. وبإمكان العلم أن يقوم في المستقبل بتدقيقات في التأقيت أعظم من تقديراتنا الحالية. ولكنا نستطيع أن نكون واثقين بأننا لن نثبت أبداً أن الإنسان ظهر على الأرض منذ ٥٧٣٦ سنة كما شاء التقويم العبري سنة ١٩٧٥. إن معطيات التوراة المتعلقة بالإنسان القديم هي إذاً خاطئة. هذه المقابلة مع العلم تبعد كل مسألة دينية بالمعنى الصحيح، لأن العلم مثلاً لا يجد أي تفسير لكيفية تجلي الله لموسى «عليه السلام»، أو للسر الذي يحيط بمولد عيسى «عليه السلام» ومجيئه إلى العالم من دون أن يكون له أب طبيعي. في حين أن الكتب المقدسة لا تقدم أي تفسير مادي عن وقائع من هذا النوع. إن هذه الدراسة تنصب على ما تعلمنا إياه الكتابات المقدسة من موضوع الظواهر الطبيعية الكثيرة التنوع التي تحيطها إلى حد ما بتأويلات أو تفسيرات. وبهذا الخصوص ينبغي أن نقابل ثروة الوحي القرآني الضخمة بالنسبة للوحيين الآخرين في هذا الموضوع بالذات.

ودون أية فكرة مسبقة، وبموضوعية تامة أجدني أتوجه أولاً إلى الوحي القرآني باحثاً عن درجة التوافق بين نص القرآن ومعطيات العلم الحديث. وقد كنت أعرف من بعض الترجمات أن القرآن يسوق كل أنواع الظواهر الطبيعية. ولم أكن أملك منها إلا معرفة جزئية، ولكن بعد تدقيق النص العربي بإمعان شديد قمت بجردة شاملة استبان لي منها أنه ليس في القرآن تأكيد يمكن أن ينتقد من الوجهة العلمية في هذا العصر الحديث.

وقد قمت بالتدقيق ذاته للعهد القديم والأناجيل بالموضوعية نفسها، فلم يكن ثمة بالنسبة للأول ما يحوج الانتقال إلى أبعد من سفر التكوين للوقوف على تأكيدات مناقضة لمعطيات العلم المعترف بها في هذا العصر.. ويغرق المرء دفعة واحدة لدى فتح الأناجيل، عند نسب المسيح الذي يبدو من الصفحة الأولى في مشكلة مهمة، هي أن نص متّى هو في هذه النقطة متناقض صراحة مع نص لوقا،

العهد القديم

من هو مؤلف العهد القديم؟

كم من قارىء للعهد القديم يلقى عليه هذا السؤال، فلا يحير جواباً إلا مردداً ما قرأه في مدخل التوراة بأن مؤلف هذه الكتب المقدسة كلها هو الله. مع أن الذين كتبوها هم بشر من الذين أوحى الروح القدس إليهم[1].

ويقتصر كاتب مقدمة التوراة على اعلام القارىء أحياناً بواسطة هذا المفهوم الموجز الذي يقطع الطريق على التساؤل، بينما يضيف أحياناً تصحيحاً، مفاده أنه يمكن أن تكون بعض التفصيلات قد زيدت من قبل البعض على النص الأصلي. ولكن انصباب النزاع على مقطع ما، لا يخدش جوهر «الحقيقة» العامة فيه. ومن هنا الالحاح الذي تضمنه الكنيسة المعلمة، المؤيدة بالروح القدس، القادرة وحدها على تنوير المؤمنين في هذه النقاط. ألم تعلن الكنيسة ابتداء، من مجامع القرن الرابع قائمة بالكتب المقدسة؟ هذه القائمة التي صدقت لتشكل ما نسميه القانون في مجامع فلورنس (١٤٤١) وتورانت (١٥٤٦) وفاتيكان أول (١٨٧٠) وحديثاً جداً مجمع الفاتيكان الثاني الأخير؟ ألم تنشر بعد كثير من البراءات نصاً عن الوحي على جانب كبير من الأهمية، استغرق وضعه ثلاث سنوات من العمل المضني (١٩٦٢-١٩٦٥)؟ إن غالبية قارئي التوراة، تجد هذه المعلومات مشجعة في استهلاك الطبعات المعاصرة فتكتفي بضمانات الأصالة المعطاة على مر القرون من دون أن تفكر مطلقاً في إمكان مناقشتها.

---

(١) إن هذا الكلام يصعب تطبيقه على ما سيأتي للمؤلف من أحكام في هذا الموضوع، تحاول بمجموعها أن تثبت أن أيدي البشر امتدت إلى كثير من نصوص التوراة والانجيل. المترجم.

الثالث قبل المسيح. وقد قام بها يهود الاسكندرية. وعلى نصها يستند مؤلفو العهد القديم. وقد ظل نفوذها حتى القرن السابع الميلادي. إن النصوص اليونانية الأساسية المتداولة على العموم في العالم المسيحي، هي نصوص المخطوطات المحفوظة تحت اسم «محفوظات الفاتيكان» في مدينة الفاتيكان، و «محفوظات سينا» في المتحف الانكليزي في لندرة والتي تعود إلى القرن الرابع الميلادي.

وقد استطاع القديس جيروم في السنوات الأولى من القرن الخامس الميلادي، وضع نص في اللاتينية انطلاقاً من الوثائق العبرية نشرت في الطبعة المسماة Vulgat الترجمة اللاتينية للتوراة بسبب نشرتها العالمية بعد القرن السابع الميلادي.

كل هذه النصوص اتاحت للاختصاصيين الوصول إلى صياغة «متوسطة» للتوفيق بين النصوص المختلفة. ولقد انجزت مجموعات متوازية متقاربة في لغات مختلفة تورد جنباً إلى جنب النصوص العبرية واليونانية واللاتينية والسريانية والأرامية حتى والعربية مثل توراة «والتون» الشهيرة. ولنكمل المطاف نضيف أن المدركات التوراتية المتباينة، كانت بين مختلف الكنائس المسيحية سبب رفضها جميعها نفس الأسفار. كما أنها حتى الآن ليس لها في اللغة الواحدة الأفكار الواحدة عن الترجمة. فمهمة التوحيد في طريق الانتهاء. والترجمة المسكونية للعهد القديم التي حققها عدد من الخبراء الكاثوليك والبروتستانت ستصل إلى نص مركب.

وهكذا يبدو إسهام الإنسان في نص العهد القديم عظيماً. وإننا لنتحقق دونما عسر من نص إلى آخر، ومن ترجمة إلى أخرى، ومع التصحيحات المستخلصة حتمياً، أن النص الأصلي كان تحريفه ممكناً خلال أكثر من ألفي سنة.

أصل التوراة:

قبل أن تصبح مجموعة أسفار، كانت تقليداً شعبياً يرتل عفوياً من الذاكرة التي كانت في الأصل الوسيلة الوحيدة لتداول الأفكار.

وفي المرحلة البدائية يسبق النظم النثر. ولذلك كان الانشاد دأب كل شعب، في إسرائيل كما في غيره. وشعب إسرائيل مدفوعاً بظروف تاريخية أنشد كثيراً

على أن ثمة مجالاً للتفكير بأنه بعد استقرار الشعب اليهودي في أرض كنعان، أي في نهاية القرن الثالث عشر قبل المسيح، استعملت الكتابة، دونما دقة، لنقل العرف والمحافظة عليه، حتى بالنسبة إلى الشرائع التي يخيل للناس أنها ذات ديمومة أطول. ومن بين هذه الشرائع التي قيل أنها كتبت بيد الله، الوصايا العشر التي نقلت في العهد القديم بمقتضى نصين «سفر الخروج ٢٠-١-٢١» و «دوترونوم ٥-١-٣٠». جوهرهما واحد. ولكن التلون والتغير فيهما باديان ولقد كان ثمة اهتمام بجمع محفوظات مهمة فيها: عقود، ورسالات ولوائح شخصية (قضاة، وموظفون كبار في المدن ولوائح سلالات) ولوائح قرابين ولوائح الغنائم بحيث تكونت محفوظات يسرت التوثيق أثناء التحرير النهائي للمؤلفات التي أفضت إلى الأسفار التي بين أيدينا. ففي كل سفر ألوان أدبية مختلفة ممزوجة. وعلى الاختصاصيين بحث أسباب هذا التجميع المتباين بين أنواع مختلفة من الوثائق.

والمهم أن نقرب هذه الطريقة بالتركيب بين مجموعة متخالفة هي العهد القديم، على أساس مبدئي من الرواية الشفوية لما أمكن وقوعه تحت سماوات أخرى وفي أزمنة أخرى لدى نشأة أدب بدائي.

ولنأخذ مثلاً على ذلك، نشأة الأدب الفرنسي في عصر ملكية الفرنسيين حيث تصدرت الرواية الشفوية في البداية لتسجل الوقائع. فقد كانت في الغالب حروب لحماية المسيحية، كما كانت مآس مختلفة لمع فيها أبطال، وتأثر بهم بعد أجيال متأخرة شعراء القرون الوسطى، ومؤرخون، ومؤلفو «عهود» مختلفة. وابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي برزت تلك الأغاني الرمزية التي يختلط فيها الخيال بالحقيقة، فبنت أو ألفت أول صرح للملحمة المنظومة. كان من أشهرها أنشودة رولان. وهي أغنية تاريخية لواقعة مسلحة كبيرة لمع فيها رولان قائد مؤخرة الأمبراطور شارلمان في رجعته من غزوة لاسبانية. ولم تكن تضحية رولان فيها حدثاً منتزعاً من الخيال لتغطية احتياجات القصة. لقد كانت الغزوة في الخامس عشر من آب سنة ٧٧٨. وكانت رداً على هجوم من الجبليين الباسك. ورغم أن العمل الأدبي في هذه القصة يبرز في مجموعة من الأساطير لها سند تاريخي إلا أن المؤرخين لم يأخذوا بها حرفياً.

أسفار العهد القديم

إن العهد القديم مجموعة مؤلفات غير متساوية الطول، ومختلفة النوع، كتبت خلال أكثر من تسعة قرون في لغات عدة أخذا بالسماع. وكثير من هذه المؤلفات صححت ثم أكملت، تبعاً للأحداث أو للضرورات الخاصة، على مدى أجيال، متباعدة أحياناً بعضها عن بعض.

ومن المعقول أن يكون ازدهار هذا الأدب الثري، قد تم في مطلع عهد الملكية الإسرائيلية في القرن الحادي عشر قبل المسيح. وهو العصر الذي ظهر فيه في الحاشية الملكية سلك الكتبة. وهم شخصيات مثقفة لا ينحصر عملهم في الكتابة فقط. وترجع إلى هذا العصر بدايات الكتابات الأولى المجزأة المذكورة في الفصل السابق. وهي كتابات من المفيد تثبيتها خطياً، كبعض الأناشيد التي ذكرت آنفاً، وتنبؤات يعقوب وموسى «عليه السلام»، والوصايا العشر. وعلى العموم النصوص التشريعية التي كانت قبل اكتمال القانون تشكل تقليداً دينياً. كل هذه النصوص تؤلف قطعاً متناثرة هنا وهناك، في مجموعات مختلفة من العهد القديم.

وفي وقت متأخر قليلاً، ولعله في مجرى القرن العاشر قبل الميلاد، كان قد وضع النص اليهودي للأسفار الخمسة، التي شكلت فيما بعد هيكل الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى «عليه السلام». وزيد عليها فيما بعد المقطع الإلهي والمقطع الكهنوتي. ويعالج النص اليهوي الأصلي الذي صدر عن مملكة يهوذا في الجنوب مرحلة أصول الخلق حتى موت يعقوب «عليه السلام».

وفي آخر القرن التاسع، منتصف القرن الثامن قبل المسيح في مملكة شمال (إسرائيل)، ازدهرت النبوة، وانتشر تأثيرها مع إيليا واليسع «عليهما السلام» اللذين نملك اسفارهما. وكان هذا العصر، عصر النص الإلهي للأسفار الخمسة

سفر الجامعة كوهيلت إلى القرن الثالث قبل المسيح، وهو أيضاً تاريخ تحرير نشيد الأناشيد، وكتابي التاريخ الاستقرائي لعزرا ونحميا. وقد ظهر سفر الجامعة أو سيراخ في القرن الثاني قبل المسيح. أما كتاب حكمة سليمان، وكتابا مكابي فقد حررت قبل قرن من ميلاد المسيح. هذا ويصعب تأريخ كتب راغوث واستير ويونان. كما يصعب تأريخ كتابي طوبيا ويودث. كل هذه الدلالات قد كتبت احتياطاً من التعديلات اللاحقة، لأن كتابات العهد القديم لم تعط شكلها الأولي إلا قبل المسيح بقرن واحد. ولم يصبح هذا الشكل بالنسبة إلى الكثيرين نهائياً إلا في القرن الأول بعد الميلاد.

وهكذا ظهر العهد القديم كصرح لأدب الشعب اليهودي من أصوله حتى العصر المسيحي، وقد حررت الأجزاء التي يتألف منها. وتمت وروجعت فيما بين القرنين العاشر والأول قبل المسيح. وليست هذه وجهة نظر شخصية ندلي بها هنا عن تأريخ تحريرها، بل لقد أخذت معطياتها التاريخية الأساسية من فصل (التوراة) المكتوب لدائرة المعارف العالمية [1] من قبل سندروز وهو أستاذ في جامعة الدومينيكان في سولشوار. ولا بد لكي نفهم ما هو العهد القديم، من أن نتذكر هذه المعلومات المثبتة تماماً في أيامنا هذه من اختصاصيين ذوي خبرة رفيعة.

فقد اختلط الوحي بكل هذه الكتابات. ولا نعرف اليوم إلا ما تركه لنا منه الذين عالجوا نصوصه حسب هواهم ووفقاً للظروف التي وجدوا فيها، والضرورات التي واجهوها [2].

وعندما نقارن هذه المعطيات الموضوعية مع تلك الموجودة في مقدمات التوراة المختلفة والهادفة في أيامنا إلى تبسيطها للناس، نتأكد من أن الوقائع مسوقة فيها

---

(١) طبعة ١٩٧٤ جزء ٣ صفحة ٢٤٦-٢٥٣.

(٢) ان هذا الكلام من الاهمية بمكان. وان على الذين يقرأون هذه الكلمات التي يكتبها فرنسي في أواخر القرن العشرين أن يروا فيها شهادة مشاهدة على اعجاز القرآن، وأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعلى صدق دعوة محمد ﷺ وان يتعرفوا بالحق. وصدق الله تبارك وتعالى اذ يقول: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً. فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ البقرة ٧٨ «المترجم».

الأماكن التي خرجوا منها» (سفر العدد ٢، ٣٣) أو أن «موسى «عليه السلام» كتب هذه الشريعة» (سفر التثنية ٩، ٣١). وقد شرع الناس ابتداء من القرن الأول قبل المسيح يدافعون عن هذه النظرية، وأيدها «فلافيوس جوزيف، وفيلون الاسكندري».

أما اليوم فقد أهملت نهائياً باتفاق الجميع. ولكن هذا لا يمنع أن ينسب العهد الجديد إلى موسى «عليه السلام» أبوته للأسفار الخمسة. وبولس في فصل من رسالته إلى أهل روميه (٥، ١٠) وهو يورد عبارة من سفر الأحبار تؤكد أن «موسى «عليه السلام» بذاته كتب عن العدالة التي تأتي من الشريعة» بينما يقول يوحنا على لسان عيسى «عليه السلام» في إنجيله (٥، ٤٦، ٤٧) هذه الجملة «لو كنتم تصدقون موسى «عليه السلام» لصدقتموني لأنه أخبر عني فيما كتب. وإذا كنتم لا تصدقون كتبه فكيف تصدقون كلامي؟» ويقصد هنا الكتابة. والعبارة اليونانية الموجودة في النص الأصلي هي Epistente والواقع أن هذا تأكيد خاطىء تماماً وضعه الإنجيلي على لسان المسيح «عليه السلام» كما سيثبت ذلك فيما يلي:

إني أستعير عناصر هذا التدليل من الأب دوفو مدير المدرسة التوراتية في القدس الذي قدم لترجمته سفر التكوين ١٩٦٢ بمدخل عام للأسفار الخمسة، وساق براهين قيمة جداً تتجه ضد التأكيدات الإنجيلية في أبوة موسى «عليه السلام» للأسفار الخمسة.

ويذكر الأب دوفو «بأن العرف اليهودي الذي تبعه المسيح «عليه السلام» والرسل» بقي مقبولاً حتى نهاية القرون الوسطى. وقد كان «ابن عزرا» في القرن الثاني عشر المعارض الوحيد لهذه النظرية. وفي القرن السادس عشر نبه كارلستادت إلى أن موسى «عليه السلام» لم يستطع كتابة خبر موته في سفر التثنية (٣٤، ٥-١٢). ويذكر المؤلف فيما بعد انتقادات أخرى أنكرت نسبة جزء على الأقل من الأسفار إلى موسى «عليه السلام»، وبخاصة كتاب ريشار سيمون في (الأوروتوار) «تاريخ العهد القديم النقدي ١٩٦٨» الذي أورد الصعوبات الزمنية، والتكرارات، وفوضى النصوص، واختلافات الأسلوب في الأسفار الخمسة. لقد أحدث الكتاب فضيحة حتى ولو لم يعد أحد يتبع حجج

وتسعة في الشريعة الكهنوتية «ما عدا الزيادات الموزعة بين ثمانية مؤلفين كما كتب الأب دوفو» وقد توصل البعض في تاريخ أكثر حداثة إلى التفكير بأنه «كان لكثير من الأنظمة أو من شرائع الأسفار الخمسة ما يوازيها خارج التوراة مما هو أسبق بكثير من التواريخ التي قد تنسب إلى الوثائق»، وأن «عدداً من روايات الأسفار الخمسة يفترض بينة أخرى أقدم من التي ظهرت فيها هذه الوثائق» وهذا ما يوصلنا إلى الاهتمام «بتكوين التقاليد» فالمسألة تبدو إذن على مستوى من التعقيد بحيث لا يهتدي معه أحد للتعرف إليها.

إن تعدد المصادر يستدعي الخلافات والتكرارات الكثيرة. ويعطي الأب دوفو أمثلة على تداخل التقاليد المختلفة المتعلقة بالخلق وذريات قايين، والطوفان، وخطف يوسف «عليه السلام» ومغامراته في مصر، واختلافات الأسماء المتعلقة بنفس الشخصية والعروض المختلفة للأحداث المهمة.

وهكذا ظهرت الأسفار الخمسة مشكّلةً من التقاليد المختلفة المجموعة بمهارة من بعض الكتاب الذين وضعوا مراجعهم تارة بعضها إلى جانب بعض، وطوراً غيروا الروايات بهدف تلخيصها مع الابقاء على المستحيلات والتخالفات التي ساقت المعاصرين إلى البحث الموضوعي عن المصادر.

ودونما ريب، فإن الأسفار الخمسة، هي في مجال النقد للنص، المثل الأكثر وضوحاً للتعديلات التي أجراها الناس في مختلف عهود تاريخ الشعب اليهودي، وللروايات الشفوية وللنصوص المأخوذة عن الأجيال الماضية، هذا، وقد بدأ في القرن العاشر أو التاسع قبل المسيح مع الرواية اليهوية، التي أخذت الخبر من أصوله، لم يكن إلا ليرسم المعالم الأولية للمصير الخاص لاسرائيل كما كتبه الأب دوفو «ليعيدها إلى موضعها في مرتسم الله الكبير عن الإنسانية» وقد انتهى في القرن السادس قبل المسيح بالرواية الكهنوتية المهتمة بالتدقيق في ذكر التواريخ والانساب[1].

(١) سنرى في الفصل اللاحق أخطاء كتاب النص الكهنوتي فيما يتصل بقدم الانسان على الارض ومكانته في الزمن وتقلب الخلق. والاخطاء ناتجة بوضوح من تدخل أيدي الناس في النصوص.

ـ الحرف ي يمثل النص اليهوي.

ـ الحرف ك يمثل النص الكهنوتي.

فمثلاً، السطر الأ ول من الجدول:

من الفصل ١ جملة ١ إلى فصل ٢ جملة ١٤ النص الحالي المنشور في التوراة هو النص الكهنوتي.

الكتب التاريخية:

نطالع فيها تاريخ الشعب اليهودي من يوم دخوله أرض الميعاد (المحدد في الأرجح في آخر القرن الثالث عشر قبل المسيح) حتى النفي إلى بابل، في القرن السادس قبل المسيح.

والالحاح هنا منصب على ما يمكن تسميته «الواقع الوطني» المبرز كأنه تحقيق للكلمة الإلهية. وفي الرواية بعض الاستهانة بالدقة التاريخية، فكتاب مثل سفر يشوع خاضع قبل كل شيء لأسباب لاهوتية. وبهذه المناسبة يبرز الأستاذ ادموند جاكوب التناقض المنكشف، بين علم الآثار والنصوص الواردة في معرض ادعاءات تخريب أريحا وعي.

إن كتاب القضاة يدور حول دفاع الشعب المختار بمساعدة الله ضد الأعداء المحيطين به. وقد عدل هذا الكتاب أكثر من مرة. وهو ما يلفت إليه النظر الأب دوليفييفر في مقدمات توراة كراميون. ويشهد لهذا، الاستدلالات المتداخلة والزيادات. وتاريخ روث يرتبط بأخبار القضاة هذه.

إن سفر صموئيل، وأسفار الملوك، هي على الخصوص مجموعات سير صموئيل وشاؤول وداود وسليمان. وقيمتها التاريخية مشكوك فيها. ويرى ادموند جاكوب من هذه الجهة أخطاء كثيرة. إذ يمكن أن تكون الرواية فيها للحادث الواحد روايتين أو ثلاثاً. وللأنبياء، الياس واليسع واشعيا فيها مكانهم الذي تختلط فيه السمة التاريخية مع السمة الأسطورية، بينما يرى شراح آخرون مثل الأب ليفييفر أن «قيمتها التاريخية أساسية».

يقول المؤرخ بأن كاتب السفر الأول والثاني من التاريخات، وأسفار اسدراس ونخميا واحد، كان يعيش في آخر القرن الرابع قبل الميلاد. أنها تحوي تاريخ الخلق برمته حتى ذاك العصر. أما انسابها فلا تمتد إلا إلى داوود «عليه السلام». وبالفعل فإنه يستخدم بالخصوص سفر صموئيل وأسفار الملوك «وينسخها آليا دون أن يهتم بالتناقضات» (ادموند جاكوب) ولكنه يضيف أيضاً كثيراً من الوقائع الدقيقة التي تؤيدها الآثار. في هذه المؤلفات يبرز الاهتمام بتطويع التاريخ الضرورات اللاهوتية. فالكاتب كما يقول ادموند جاكوب «يصنع التاريخ أحياناً

يستمر في منحه حبه [1] وأشعيا صورة من صور التاريخ السياسي لأنه قد سيطر على الأحداث من خلال استشارة الملوك له. فهو نبي العظمة، يضاف إلى أعماله الشخصية نشر نبواته بواسطة تلاميذه حتى القرن الثالث قبل المسيح، منها احتجاجات ضد البغاة، وخوف من محاسبة الله، ونبأ التحرر وقت المنفى ونبأ في فترة أكثر تأخراً عن عودة اليهود إلى فلسطين.

وإنه لمن المؤكد بأنه في كتابي أشعيا الثاني والثالث هذين ظهر بجلاء تضاعف الجهد السياسي. وقد انطلق وعظ ميخا المعاصر لاشعيا من نفس هذه الأصول الفكرية العامة.

وقد اشتهر في الوعظ في القرن السابع قبل المسيح كل من صنيا وأرميا وناحوم وحبقوق. وقد استشهد أرميا الذي ربما كان مؤلف المراثي.

وفي مطلع القرن السادس قبل المسيح، بعث النفي إلى بابل نشاطاً نبوياً عظيماً. ويعتبر حزقيل الذي زرع في أخوته الرجاء، وجهاً عظيماً للمعزي. ورؤاه مشهورة، وكتاب عبيدياس متصل بمآسي القدس المحتلة.

وقد عاد النشاط النبوي بعد المنفى الذي انتهى سنة ٥٣٨ قبل الميلاد مع عجي وزكريا للحث على إعادة بناء الهيكل. وما أن انتهى البناء وهو ما كتب تحت اسم ملخيا حتى احتوى التنبؤات الروحية المختلفة.

ولماذا اندمج كتاب يونان في كتب النبوة في حين أن العهد القديم لم ينسب إليه نصوصاً في المعنى الحرفي للكلمة. إن يونان قصة يستخلص منها مبدأ أساسي هو ضرورة الخضوع للإرادة الإلهية.

وفي رأي الشراح المسيحيين أن دانيال رؤيا مشوشة تاريخياً مكتوبة في لغات ثلاث (العبرية والأرامية واليونانية) انه مؤلف يعود إلى القرن الثامن قبل المسيح في عصر مكابي، أراد فيه الكاتب حفاظاً على إيمان مواطنيه اقناعهم (في فترة الحزن الكريه) بأن زمن الخلاص قريب.

---

(١) هذا الكلام يعبر عن المفهوم الديني لدى المسيحية فقط وليس له أي وجود في مفاهيمنا الدينية الاسلامية «المترجم».

من الكتابات، مثل المراثي، وكتابات حكمة سليمان «عليه السلام» أو كتابي أيوب «عليه السلام».

وسنرى بعيداً أن المسيحية المدروسة جيداً من الكتاب المعاصرين مثل الكاردينال دانييلو، وقد كانت في أول الأمر اليهودية ــ المسيحية، قد تلقت بصورة طبيعية هذا الميراث من العهد القديم الذي ارتبط به كتاب الأناجيل إلى حد بعيد، قبل أن تخضع للتحول بتأثير بولس.

ولو شذبت الأناجيل فحذف منها غير الصحيح، لما أمكن الظن بوجوب تحقيق نفس عملية الفرز للعهد القديم، ولقبل الكل أو ما هو قريب منه (١).

ومن كان يجرؤ على المعارضة أياً كانت لهذا الخليط الذي يعوزه الانسجام حتى نهاية القرون الوسطى، وفي الغرب على الأقل. ومع ذلك فقد ظهرت مع نهاية القرون الوسطى حتى بداية الأزمان المعاصرة بعض الانتقادات كما رأينا فيما سبق. بيد أن الكنائس كانت تنجح دائماً في فرض نفوذها. ولقد ظهر حقاً في أيامنا نقد أصيل للنص. ولكن المختصين به من الاكليركيين رصدوا كثيراً من الجهود لفحص خليط من النقاط التفصيلية وفضلوا عدم الامعان فيما يسمونه بلياقة، صعوبات. إنهم لم يظهروا أبداً مندفعين لدراستها في ضوء المعارف المعاصرة. وإننا إذا شئنا عقد مقارنات تاريخية ــ ولا سيما ــ عندما يظهر التوافق بينها وبين الروايات.. التوراتية ــ لا نلتزم بعد خطة مقارنة صريحة ــ ومعمقة مع الأفكار العلمية التي نرى أنها تفضي إلى الاعتراض على الفكرة التي لم تزل مسلمة في حقيقة الكتابات اليهودية ــ المسيحية (٢).

---

(١) هذا القول وان كان يؤكد المعنى السابق. الا انه بالنسبة الينا كمسلمين نؤمن بأن رسالة الاسلام هي خاتمة الرسالات وأنها ناسخة لما قبلها لما اعتراه من تبديل وتحريف، وانها جاءت بالقول الفصل لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، مهم جداً فليفتح العقلاء قلوبهم وليبصروا الحق!! «المترجم».

(٢) أليس مثل هذا القول يدعو إلى اعادة النظر في كثير مما ينسب إلى أنه حقائق؟ أليس يشكل خطوة بصيرة ورشيدة إلى الحق؟! وهل سيزيل كثيراً من الغشاوات التي لحقت بالعيون لتبصر بجلاء وترى بوضوح؟! «المترجم».

وهاك مثلاً بارزاً:

يعزم الله كما في سفر التكوين، قبل الطوفان تماماً، بأن يحدد منذ ذلك الزمن عمر الإنسان حتى ١٢٠ سنة «عمره لن يكون إلا مئة وعشرين سنة» كما هو مكتوب. ثم يرد بعد ذلك في سفر التكوين أيضاً (١١-١٠-٣٢) طول عمر الواحد من العشرة المنحدرين من نوح يتراوح بين (٤٠٠-٦٠٠) أنظر اللائحة التي صورت فيها في هذا الفصل (ذرية نوح حتى ابراهيم). وتفسير هذا التناقض الجلي بين هذين النصين بسيط، لأن النص الأول من سفر التكوين (٣، ٦) نص يهوي يعود دونما شك كما سبق ورأينا إلى القرن العاشر قبل المسيح، بينما النص الثاني من سفر التكوين (١١-١٠-٣٢) نص أكثر حداثة (القرن السادس قبل المسيح) هو من الرواية الكهنوتية التي هي أصل هذه الانساب التي هي إلى الدقة عند السرد لمدد الأعمار بمثل ما هي عليه من الاستحالة عندما نأخذها جملة واحدة.

ففي سفر التكوين تناقضات صريحة مع العلم المعاصر، وهي تقع في ثلاث نقاط أساسية.

أ ــ خلق العالم ومراحله.
ب ــ تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض.
جـ ــ رواية الطوفان.

خلق العالم:

إن سفر التكوين كما نبه الأب دوفو «يبدأ بروايتين متقاربتين عن الخلق» وينبغي إذا شئنا اختبار مطابقتهما للمعطيات العلمية اختبار كل واحدة منهما على حدة.

الرواية الأولى للخلق:

تشغل الرواية الأولى الفصل الأول والآيات الأولى من الفصل الثاني، إنها صرح من الأخطاء في نظر العلم.. ينبغي مواجهة نقدها مقطعاً بعد مقطع. مع العلم بأن النص المسوق هنا هو من ترجمة المدرسة التوراتية في القدس.

الآيات: ٦-٨:

«وقال الله ليكن جلد في وسط المياه. وليكن فاصلا بين مياه ومياه. فصنع الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد فكان كذلك. وسمى الله الجلد سماء وكان مساء وكان صباح يوم ثان».

وأسطورة المياه تتتابع هنا مع فصلها إلى طبقتين بواسطة جلد يسمح بتسرب المياه كما هي رواية الطوفان من فوق الجلد لتنصب على الأرض. إن هذه الصورة لانشطار المياه إلى كتلتين غير مقبولة عملياً.

الآيات: ٩-١٣:

«وقال الله لتجتمع المياه التي تحت السماء إلى موضع واحد، وليظهر اليبس فكان كذلك. وسمى الله اليبس أرضاً ومجتمع المياه بحاراً ورأى الله ذلك أنه حسن».

وقال الله «لتنبت الأرض نباتاً عشباً يبزر بزراً وشجراً مثمراً يخرج ثمراً بحسب صنفه بزره فيه على الأرض فكان كذلك. فأخرجت الأرض نباتاً عشباً يبزر بزراً بحسب صنفه، وشجراً يخرج ثمراً بزره فيه بحسب صنفه. ورأى الله ذلك أنه حسن.. وكان مساء وكان صباح يوم ثالث».

وكون الأرض في عصر ما من تاريخها مغمورة بالماء، ثم ظهور اليبس منها، مقبول تماماً علمياً.. بيد أن ظهور وجود نباتي شديد التنظيم، مع تكون من الحب قبل وجود الشمس «وهكذا سيكون كما يقول سفر التكوين في اليوم الرابع» وكذلك تحقق تعاقب النهار مع الليل فشيء ليس له أساس.

الآيات من ١٤-١٩:

«وقال الله لتكن نيرات في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين، وتكون نيرات في جلد السماء لتضيء على الأرض. فكان كذلك. وضع الله النيرين العظيمين، النير الأكبر لحكم النهار. والنير الأصغر لحكم الليل والكواكب. وجعلها اثلة في جلد السماء لتضيء على الأرض،

الآيات: ٢٤-٣١:

«وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية بحسب أصنافها بهائم ودبابات ووحوش أرض بحسب أصنافها فكان كذلك، فصنع الله وحوش الأرض بحسب أصنافها والبهائم بحسب أصنافها وكل دبابات الأرض بحسب أصنافها. ورأى الله ذلك أنه حسن» «وقال الله لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا وليتسلط على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع الأرض وكل الدبابات الدابة على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه[1] ذكراً وأنثى خلقهم. وباركهم الله وقال لهم انموا واكثروا واملأوا الأرض واخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وطير السماء وجميع الحيوان الداب على الأرض، وقال الله ها قد اعطيتكم كل عشب يبزر بزراً على وجه الأرض كلها وكل شجر فيه ثمر يبزر بزراً يكون لكم طعاماً. ولجميع وحش الأرض وجميع طير السماء وجميع ما يدب على الأرض مما فيه نفس حية جميع بقول العشب جعلتها مأكلاً. فكان كذلك. ورأى الله جميع ما صنعه فإذا هو حسن جداً. وكان مساء وكان صباح يوم سادس».

هذا وصف لانهاء الخلق الذي عدد فيه الكاتب كل الخلائق الحية غير المذكورة سابقاً، وعرض للمواد المختلفة التي سخرت للناس والحيوانات.

والخطأ ــ وقد سبق ورأيناه ــ وهو بذكر ظهور الحيوانات الأرضية بعد الطيور. بيد أن ظهور الإنسان على الأرض بعد ظهور أصناف أخرى من الكائنات الحية كان في موضعه الصحيح. ورواية الخلق تنتهي بالآيات الثلاث الأولى من الفصل الثاني.

«فأكملت السموات والأرض وجميع جيشها. وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل وبارك الله اليوم السابع وقدسه، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي خلقه الله ليصنعه هذه مبادىء السموات والأرض إذ خلقت يوم صنع الرب الاله الأرض والسموات».

---

(١) هذا يخالف ما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء..﴾ ويخالف ما عليه جمهور المسلمين قديماً وحديثاً.

الخلق مسوقة بمظهر منطقي ديني بارز، ولكن بطريقة، تسمح لمعطيات العلم بوصفها بأنها مسوقة حسب الهوى.

هذا الإنجاز، في إطار أسبوع، لمراحل متلاحقة للخلق الذي يقصد به الكاتب الكهنوتي استثارة الممارسة الدينية، غير مقبول من وجهة النظر العلمية.

واننا لنعلم تماماً، في أيامنا، بأن تكوين العالم والأرض، الذي سنتكلم عنه فيما بعد في الجزء الثالث من هذا الكتاب، بمناسبة ذكر معطيات القرآن المتعلقة بالخلق، قد أنجز في مراحل ممتدة في عهود زمنية متطاولة جداً، لا تسمح المعطيات المعاصرة بتحديد مداها حتى التقريبي. بل ولو انتهت الرواية في مساء اليوم السادس... ولم تذكر اليوم السابع يوم السبت الذي استراح فيه الله[1]، بل حتى ولو كان كما هو الحال بالنسبة للرواية القرآنية، قد سمح بالاعتبار بأن المراد في الواقع، فترات غير محددة، لا أيام بمعناها الحرفي، فإن ذلك كله لا ينقص من ضرورة رفض الرواية الكهنوتية، لأن تتابع هذه الأحداث هو في تناقض صريح مع القيم العلمية الأولية.

وهكذا تبدو الرواية الكهنوتية للخلق، وكأنها البناء الخيالي الحاذق، هدفه شيء آخر غير التعريف بالحقيقة.

الرواية الثانية:

والرواية الثانية للخلق الموجودة في سفر التكوين، التي هي بمثابة التكملة للرواية السابقة من دون تعليق لا توحي بالانتقادات نفسها.

ولنذكر، بأن هذه الرواية هي من تاريخ أقدم بثلاثة قرون تقريباً. وهي مسافة زمنية قصيرة جداً. إنها أكثر امتداداً على خلق الإنسان وجنة الأرض، من امتدادها على خلق الأرض والسماء التي نذكرها باختصار شديد: «في الوقت الذي صنع يهواه الاله الأرض والسماء، لم تكن بعد نبتت شجرة حقل على الأرض، ولا عشبة حقل، لأن يهوه الاله لم ينزل المطر عليها ولم يكن فيها

(١) جل الله وتعالى عن ذلك (المترجم).

ولا ريب في أنه يطلب تصحيح حسابات الزمن التي تحددت أصلاً بسنوات قمرية في الوقت الذي كان فيه التقويم الغربي مرتكزاً على السنوات الشمسية. ولكن التصحيح المطلوب اجراؤه إذا ما أردنا أن نكون في غاية الدقة، والذي هو ٣ بالمئة ليس ذا أهمية. بل من الأفضل كي لا نعقد الحسابات، الإمساك عنه، خصوصاً وأن الذي يعتد به هنا، هو المقياس التقريبي. ولا يهم إذا كان عدد ملايين السنين محسوباً بحساب تقديري يخطىء في ثلاثين سنة. ولنقل، حتى نكون أشد قرباً من الحقيقة، أننا نحدد وضع خلق العالم في هذا التقدير العبري بنحو سبعة وثلاثين قرناً تقريباً قبل المسيح.

فماذا يعلمنا العلم الحديث؟! إنه لمن الصعوبة بمكان الاجابة عما يتعلق بتكوين العالم. وكل ما يمكننا تحديده هو عصر تكوين النظام الشمسي القابل بأن يوضع في الزمن بصورة تقريبية مقنعة. والمقدر أن الزمن الذي يفصلنا عنه هو أربعة مليارات ونصف من السنين. وهكذا نقيس إذن الخط الذي يفصل الحقيقة المؤكدة اليوم (والتي سنتوسع فيها في الجزء الثالث من هذا الكتاب). عن المعطيات المستخلصة من العهد القديم، والتي تنطلق من الاختبار الدقيق للتوراة. وقد جمع سفر التكوين معلومات دقيقة جداً عن الزمن الممتد ما بين آدم وابراهيم. ولكن المعلومات المستخلصة عن الفترة الممتدة ما بين ابراهيم والعصر المسيحي غير كافية، وينبغي اكمالها بمصادر أخرى.

١ ــ من آدم حتى ابراهيم:

يقدم سفر التكوين في انسابه من الفصل (٤، ٥، ١١، ٢١، ٢٥) معطيات دقيقة جداً عن كل أجداد ابراهيم في خط مستقيم حتى آدم، مقدماً عمر كل واحد، عمر الأب عند ولادة الابن. وتسمح بيسر بتأكيد تواريخ ولادة ووفاة كل جد بالنسبة إلى خلق آدم كما هو مبين في اللائحة التالية:

الكهنوتي من سفر التكوين، وهو النص الوحيد الذي يعطي تدقيقات من هذا النوع. ونستخلص منه أن مولد ابراهيم هو حسب التوراة بعد آدم بـ ١٩٤٨ سنة.

٢ ــ من ابراهيم حتى العصر المسيحي:

لا تقدم التوراة لهذه الفترة أي خبر مرقوم، قابل لأن يؤدي إلى تقويم دقيق مثل الذي قدمه سفر التكوين عن أسلاف ابراهيم «عليه السلام». ولتقدير الزمن الذي يفصل ابراهيم عن المسيح «عليهما السلام»، ينبغي الرجوع إلى منابع أخرى. ويوضع عصر ابراهيم «عليه السلام» حالياً، قبل المسيح «عليه السلام» بثمانية عشر قرناً تقريباً مع التساهل في بعض الخطأ. ولو حسب هذا التقدير على أساس تعليمات سفر التكوين، عن الزمن الذي يفصل ابراهيم عن آدم «عليهما السلام»، لكان ثمانية وثلاثين قرناً قبل المسيح، وهو خطأ دونما جدال، آت من الخطأ الوارد في التوراة عن دوام الفترة بين آدم وابراهيم «عليهما السلام»، التي يعتمد عليها التقليد اليهودي لتثبيت تقويمه. ويمكن اليوم، مجابهة المدافعين التقليديين عن الحقيقة التوراتية، بتناقضها مع المعطيات العصرية لهذه التقديرات المبنية على هوى الأحبار اليهود في القرن السادس قبل المسيح «عليه السلام». هذه التقديرات التي اتخذت أساساً خلال قرون طويلة لموقع الأحداث الزمني القديم بالنسبة إلى المسيح «عليه السلام».

لقد طبع قبل العصر الحديث، العديد من نسخ التوراة التي قدمت إلى القراء، مع مقدمات توضيحية لتواريخ الاحداث التي تسلسلت منذ خلق العالم حتى العصر الذي طبعت فيه، فكانت الارقام تختلف قليلا تبعاً للعصور. فالترجمة اللاتينية لعام ١٦٢١ مثلا، تقدم أمثال هذه التعليمات، واضعة إبراهيم «عليه السلام» قبل بقليل، وواضعة الخلق في القرن الاربعين قبل المسيح «عليه السلام» تقريباً. وتوراة والتون المتعددة اللغات، والمطبوعة في القرن الثامن عشر، تقدم للقارىء زيادة عن نصوص التوراة في لغات عدة، لوائح مماثلة لما هو مثبت هنا لأسلاف إبراهيم «عليه السلام». وكل التقديرات تكاد تتفق مع كل الأرقام المقدمة هنا. وعندما اطل العصر الحديث لم يعد بمقدور الناشرين التمسك بمثل هذه التأريخات الخاضعة للهوى، من دون التصادم مع الاكتشافات العلمية،

الطوفان

خصصت الفصول ٦، ٧، ٨ من سفر التكوين لرواية الطوفان. وبصورة أدق لروايتي الطوفان، لأن هناك روايتين غير موضوعتين الواحدة إلى جانب الاخرى. بل البعض الآخر من الفصول في تلاحم ظاهري خلال تتابع مختلف المراحل. والحق انها مفرقة في مقاطع متداخل بعضها ببعض. وفي هذه الفصول الثلاثة تناقضات جلية يمكن تفسيرها بأنها ناتجة عن وجود مصدرين متمايزين:

المصدر اليهوي، والمصدر الكهنوتي، وقد رأينا سابقاً أنهما يشكلان خليطاً متناثراً. فكل نص أصلي قد قطع إلى فقرات أو إلى جمل. وعناصر أحد المصدرين تتوالى مع عناصر المصدر الآخر، حتى أن المرء ليضطر خلال مئة سطر تقريباً من النص الفرنسي، إلى الانتقال في الرواية من مصدر إلى آخر سبع عشرة مرة. والرواية في مجملها هي ما يلي:

لما كان فساد الناس قد عم، فقد عزم الله على افنائهم مع جميع الخلائق الاخرى.. فأخبر نوحاً «عليه السلام» وأمره بأن يصنع فلكاً، وأن يحمل فيه زوجته وأولاده الثلاثة مع زوجاتهم الثلاث وغيرهم من المخلوقات الحية الاخرى. والمصدران يختلفان بالنسبة إلى هذه الاخيرات. فبينما يشير في مقطع من الرواية (هو من أصل كهنوتي) أن نوحاً «عليه السلام» قد أخذ معه زوجاً من كل نوع، يثبت في مقطع آخر (من أصل يهوي) ان الله أمره بأن يحمل معه من الحيوانات الطاهرة فقط سبعة من كل نوع ذكراً وأنثى، ومن الحيوانات النجسة زوجاً واحداً. ولكن بعد ذلك بقليل يثبت أن نوحاً «عليه السلام» لم يدخل معه في الفلك إلا زوجاً واحداً من كل واحد من الحيوانات. والاختصاصيون مثل الاب «دوفو»، يؤكدون بأن المعنى هو مقطع من الرواية اليهودية المحرفة[1].

---

(١) انا كمسلمين نعتقد بما ورد في القرآن ولا نزيد وهو قوله تعالى: ﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون﴾ وأما هذه الاخبار فيمكن الاستفادة منها استئناساً لا على أنها حقائق (المترجم).

الانساني؟! هذه الملاحظة البسيطة تنزع عن هذه الرواية كل سمة من سمات الحق.

وبالاضافة إلى ما سبق، فإن المعطيات التاريخية تبرهن على تناقضها مع المعارف الحديثة. فهي تضع إبراهيم «عليه السلام» فيما بين سنة ١٨٠٠ و١٨٥٠ قبل المسيح «عليه السلام». واذا كان الطوفان كما يوحي به سفر التكوين في انسابه، يقع قبل ثلاثة قرون تقريباً من إبراهيم «عليه السلام»، فينبغي أن يقع في القرن الواحد والعشرين أو الثاني والعشرين قبل المسيح. وهذا الزمن (الذي تسمح المعارف العلمية بتأكيده) ازدهرت فيه في عديد من المناطق على الارض مدنيات انتقلت آثارها إلى الاجيال اللاحقة.

وللتمثيل على ذلك نسوق الفترة التي سبقت المملكة الوسطى (٢١٠٠ قبل المسيح) تقريباً في مصر. وهي تاريخ المرحلة الأولى المتوسطة قبل الاسرة الحادية عشرة، بينما كانت في بابل الاسرة الثالثة لأور. ونحن نعرف تماماً بأنه لم يكن ثمة من انقطاع في هذه المدنيات، وبالتالي ليس من فناء عام أصاب الانسانية جمعاء كما أرادته التوراة.

وعلى هذا فانه لا يمكن اعتبار الروايات الثلاث للتوراة كما لو كانت حاملة للناس سرداً للوقائع مطابقاً للحقيقة، لاننا لا يسعنا إذا كنا موضوعيين الا التقرير بأن النصوص التي هي موضع الحديث، والتي وصلت إلينا لا تعبر عن الحقيقة. وهل يمكن أن يكون الله قد أوصى بشيء غير الحقيقة؟! انه لا يمكننا تصور أنه يعلم الناس بواسطة الاوهام، بل الاوهام المتناقضة فوق ذلك!! الامر الذي ينتهي بنا إلى الوصول بصورة طبيعية إلى اثارة افتراض تشويه حصل بواسطة الناس، أو تقاليد نقلت حرفياً من جيل إلى جيل، أو نصوص بعد تثبيت هذه التقاليد.

وعندما نعلم أن مؤلفاً مثل سفر التكوين قد حرف مرتين على الاقل في مدى ثلاثة قرون، فكيف ندهش بأن نجد فيه مستحيلات أو روايات غير متفقة مع حقيقة الاشياء منذ أن أمكن أن يسمح تقدم المعارف الانسانية بأن نحصل على الاقل، إذا لم نعرف كل شيء، من خلال بعض الاحداث على معرفة كافية لنقدر على الحكم بدرجة ما عليه الروايات القديمة المختصة بها من التوافق معها.

وان عدداً مهماً من الشراح المسيحيين، استحسنوا تأويل أخطاء وتناقضات ومستحيلات الروايات التوراتية مقدمين العذر الذي برر للكتاب التوراتيين بأن يتخذوا لانفسهم صفة العوامل الاجتماعية لثقافة أو فكر مختلفين وهو ما انتهى إلى تعريف «الاساليب الادبية» الخاصة. وادخال هذا الاسلوب يغطي بمنطق الشراح الفطن كل الصعوبات. اذ يعلل كل تناقض بين نصين باختلاف طريقة التعبير لدى كل كاتب «واسلوبه الادبي» الخاص. ولا ريب ان الحجة غير متبناة من الجميع لافتقارها الى الجدية. ولكن مع ذلك لم يوقف العمل بها في أيامنا. وسنرى عند الكلام على العهد الجديد، كيف سيكون تعسف البعض في تأويل التناقضات الموجودة في الاناجيل.

على أن ثمة طريقة أخرى، لو طبقت على النص المجادل فيه، تحمل على قبول ما يرفضه المنطق، وهي بأن يحاط هذا النص باعتبارات تبريرية، فيصرف انتباه القارىء عن الموضوع الجوهري لحقيقة الرواية بالذات لينصب على مسائل أخرى.

وتنتمي إلى هذا الاسلوب في التعبير، أفكار الكاردينال «دانييلو» في الطوفان التي نشرت في مجلة «الله الحي» (١) تحت عنوان: «طوفان، معمودية، حساب». فقد كتب «ان أقدم تقليد لدى الكنيسة رأى في لاهوتية الطوفان صورة للمسيح وللكنيسة» وهذا «فصل ذو معنى سام» «حكم يصيب الجنس البشري بأسره» وبعد أن ذكر «اوريجين» الذي يتكلم في عظاته عن «حزقيل» عن «غرق العالم كله الذي نجا بالفلك» يعرض لقيمة العدد ثمانية «بأنه يفسر عدد الاشخاص الذين نجوا بالفلك ــ نوح وزوجته وأولاده الثلاثة وزوجاتهم ــ» انه يتبنى ما قد كتبه مسيحنا بعد أن بعث من الاموات». ويكتب بأن «نوحاً المولود الاول في خلق جديد، صورة للمسيح الذي حقق ما كان نوح قد رمز إليه» ويتابع المقارنة بين نوح الذي أنجاه خشب الفلك، والماء الذي جعله يعوم من ناحية، وبين ماء العمادة من ناحية أخرى: «ماء الطوفان الذي ولدت منه انسانية جديدة» وخشب الصليب. لقد ألح على قيمة هذه الرمزية، وختم وهو يبرز «ثروة سر الطوفان الروحية والتعليمية».

---

(١) رقم ٣٨، ١٩٤٧ ص ٩٥-١١٢.

الذي يمارسه المعاصرون» كما لو كان قادراً على ايجاد طرق عدة في كتابة التاريخ. فرواية التاريخ بطريقة غير صحيحة تصبح ــ وكل الناس يعرفون ذلك ــ قصة تاريخية. ولكنها هنا تفلت من الاقيسة المتحدرة من أفكارنا، فيرفض شراح التوراة كل تدقيق لنصوص التوراة من علم الجيولوجيا أو علم الباليونتولوجيا(١) ومعطيات ما قبل التاريخ. فقد كتب يقول بأن «التوراة لا تخضع لأي من هذه القوانين. واذا أريد مقابلتها مع معطيات هذه العلوم فلا يمكننا الوصول إلا إلى مجابهة غير حقيقية أو إلى توافق مصطنع»(٢) وينبغي أن يلاحظ بأن سبب هذه الافكار هو أن ما في سفر التكوين غير متفق مطلقاً مع معطيات العلم المعاصر، وبخاصة الاحد عشر فصلاً الاوائل. ولكن إذا كانت بعض الروايات قد حققت تماماً في أيامنا، ولا سيما بعض روايات عهد الاباء، فان الكاتب لا يقصر على استدعاء المعارف الحديثة لمساندة الحقيقة التوراتية. وقد كتب(٣) «ينبغي ان تخضع الشكوك التي تناولت هذه الروايات للشهادة المناسبة التي قدمها التاريخ وعلم الا ثار الشرقيان»، وأيضاً «إنا نستعين بالعلم إذا كان نافعاً في تثبيت رواية التوراة، أما اذا كان يدحضها فانا نرفض الرجوع إليه».

ولكي يوفق بين المختلف، أعني نظرية صحة التوراة مع سمة عدم صحة بعض الوقائع المسوقة في روايات العهد القديم، عكف علماء اللاهوت المحدثون على مراجعة المفهومات الكلاسيكية للصحة. واننا نخرج عن اطار هذا الكتاب لو قدمنا عرضاً مفصلاً للاعتبارات الدقيقة الموسعة طويلاً في مؤلفات باحثة في صحة التوراة كما في «أو. لوريتز» سنة ١٩٧٢ «ما هي حقيقة التوراة». فلنكتف اذن بذكر هذا الحكم المتعلق بالعلم.

لقد ذكر الكاتب بأن مجمع الفاتيكان الثاني «امتنع عن تقديم القواعد التي يمكن التفريق بها بين الخطأ والصواب في التوراة. وان اعتبارات أساسية تظهر أن هذا غير ممكن، لان الكنيسة لا تستطيع أن تقرر صحة أو بطلان الطرائق العلمية فتحل مبدئياً وبوجه عام مشكلة الحقيقة في الكتب المقدسة».

---

(١) علم آثار القطع الحيوانية أو النباتية القديمة.

(٢) مدخل سفر التكوين صفحة ٣٥.

(٣) صفحة ٣٤.

في شروح الوثيقة الرسمية بتوقيع المطران «ويبر» جملة تصحح بوضوح تأكيد عجز بعض النصوص المحتواة في الاعلان الرسمي للمجمع «بعض كتب التوراة الاسرائيلية هي دونما شك ذات طابع مؤقت وفيها بعض النقص».

«العجز» عبارة من الاعلان الرسمي ليست مرادفة بالتأكيد «للطابع المؤقت» وهي عبارة الشارح. وأما صفة الاسرائيلية المزادة بصورة عجيبة من هذا الأخير فتوحي بان النص المجمعي انتقد النصوص العبرية الوحيدة، في حين أن العهد القديم هو في الواقع الذي كان وقت المجمع هدف المناقشة في نقص وعجز بعض أجزائه.

الأناجيل

يحتار كثير من قراء الانجيل، بل ويقلقون عندما يتأملون معنى بعض القصص، أو عندما يقارنون بين مختلف الروايات للحادث الواحد الذي يجدونه في عدد من الاناجيل، وهو ما لاحظه الاب روغيه في كتابه (مدخل إلى الانجيل) الذي استطاع فيه أن يقيس لدى مراسليه اهمية القلق المثار من تلاميذهم بحكم تجربته الكبرى التي أفاده بها عمله الذي شغله مدى سنين طويلة، مكلفاً بالاجابة في مجلة أسبوعية كاثوليكية على قراء الانجيل، هؤلاء الذين اقلقتهم النصوص. لقد لاحظ أن طلبات الاستيضاح من محاوريه الذين ينتمون إلى أوساط اجتماعية وثقافية متغايرة جداً تنصب على نصوص «وجدت غامضة غير مفهومة، بل متضادة ومستحيلة ومضطربة» فما من شك اذن ان قراءة النصوص الكاملة للاناجيل قابلة بأن تحدث لدى المسيحيين اضطراباً عميقاً.

ان مثل هذه الملاحظة هو حديث الزمن فقد نشر كتاب الاب روغيه في سنة ١٩٧٣، وفي أوقات ليست بعيدة جداً، وقد كانت غالبية المسيحيين لا تعرف من الاناجيل سوى مختارات تقرأ عند الصلوات، أو مشروحة عند الوعظ. وباستثناء حالة البروتستانتيين الخاصة، لم تكن قراءة الاناجيل في جملتها خارج هذه المناسبات أمراً متداولاً. ولم تكن كتب التعليم الديني تحوي منها إلا مقتطفات، والنص الكامل لم يكن متداولاً أبداً. وفي مجرى دراساتي الثانوية في معهد كاثوليكي، وضعت بين يدي كتب «فيرجيل، وأفلاطون» ولكن لم يوضع بين يدي العهد الجديد مطلقاً، رغم أن النص اليوناني له كان مفيداً جداً. وقد أدركت متأخراً لما لم نكلف بترجمة الكتب المقدسة المسيحية، فقد كان يمكن أن تسوقنا إلى طرح أسئلة على اساتذتنا تحيرهم الاجابة عليها.

لقد كان بالامكان لو كان ثمة فكر ناقد عند القراءة الكاملة للاناجيل، ان تدفع هذه الامور التي تنكشف لنا، الكنيسة للتوسط ولمساعدة القراء لتخطي ما

وإن «أ. تريكو» في معجمه الصغير عن العهد الجديد من توراة كراميون «مؤلف ذو انتشار واسع طبعة ١٩٦٠»[١] لم يخصص مادة للصعود. ان لائحة الاناجيل الاربعة للابوين بوفوا وبواسمار الاستاذين في المعهد التوراتي للقدس «طبعة ١٩٧٢»[٢] تعرفنا في جزئها الثاني صفحة «٤٥١-٤٥٢» بأن التناقض بين ما لدى انجيل لوقا وأعمال الرسل يفسر «بمهارة ادبية» وليفهم من يسعه الفهم!!

ومن المرجح كثيراً أن الاب روغيه لم يتبن في مدخله إلى الانجيل سنة ١٩٧٣ صفحة ١٨٧ مثل هذه الحجة. غير أن التفسير الذي قدمه لنا هو على الاقل ــ فريد:

«هنا كما في حالات كثيرة مماثلة، لا تبدو المسألة مستعصية إلا إذا تناولنا حرفياً تأكيدات الكتابات المقدسة ناسين معناها الديني. وليس المراد تذويب حقيقة الوقائع في رمزية مائعة، بل بحث الفكر اللاهوتي الذي لدى أولئك الذين يوحون الينا بالاسرار وهم يكشفون لنا وقائع محسوسة، واشارات تخص الجذور المحسوسة لفكرنا».

كيف يمكن الاكتفاء بمثل هذا الشرح؟ ان عبارات تمجيد من هذا النوع لا توصل إلا إلى العموميات.

وفائدة تحقيق الاب روغيه هي في رأيه أن ثمة «كثيراً من الحالات المشابهة» للصعود في الاناجيل. فمن الضروري تناول المسألة بشكل عام في العمق وبموضوعية تامة. ويبدو من الحكمة البحث عن تفسيرات بدراسة الظروف التي كتبت فيها الاناجيل، والمناخ الديني الذي هيمن في هذا العصر. وكشف تحريفات المؤلفات الاولى المحققة اعتباراً من الروايات الشفوية، وتغييرات النصوص اثناء نقلها الينا، تخفض من دهشة وجود الفقرات الغامضة، وغير المفهومة والمتضادة وغير الحقيقية التي تصل أحياناً إلى حد الاستحالة، أو المتناقضة مع الحقائق التي يثبتها في أيامنا التقدم العلمي. وشبيه هذه الملاحظات هو علامة المشاركة البشرية في التحرير ثم في التحريف اللاحق بالنصوص...

---

(١) . Deseleécteie

(٢) . Editunde Cerf

عودة تاريخية اليهودية ــ المسيحية والقديس بولس

يعتقد غالبية المسيحيين أن الاناجيل الاربعة كتبت من الشهود المعايشين لحياة المسيح الذين رتبوا من هذا الواقع شهادات لا ريب فيها عن الاحداث التي شغلت وجوده ووعظه. كيف يمكن مناقشة المعلومات المستخرجة منها مع مثل هذه الضمانات لاصالتها؟

وكيف يمكن أن نضع موضع الشك صلاحية مؤسسة الكنيسة بتطبيق تعليمات عامة معطاة لها من المسيح نفسه؟ ان طبعات الاناجيل الحالية الموضوعة بين يدي العموم، تحتوي على شروح مخصصة لنشر هذه المفاهيم عليهم.

لقد كانت تقدم إلى المؤمنين، صفة الشهود العيان لمؤلفي الاناجيل، على أنها أمر مسلم به. ألم يصف القديس جوستين الاناجيل، في منتصف القرن الثاني بأنها مذكرات الرسل؟ ثم تعلن التدقيقات العديدة عن الكتاب الذين يتساءل كيف يمكن الشك بانضباطهم؟ لقد كان متى شخصية معروفة جداً. وكان «مستخدماً في مكتب المكوس أو الجمارك في كفرناحوم» وكان مشهوراً بمعرفته الآرامية واليونانية. كما كان مرقس معروفاً جداً كمساعد لبطرس. فلا شك في أنه كان شاهد عيان له. وقد كان لوقا «الطبيب العزيز» الذي يتحدث عنه بولس. والمعلومات عنه دقيقة جداً. ويوحنا هو الرسول الدائم القرب من المسيح. انه ابن زبيدى صياد بحيرة جينيزاريت Génésareth.

على أن الدراسات الحديثة عن بدايات المسيحية توضح أن هذا الاسلوب لتقديم الاشياء لا يتفق مع الواقع أبداً. وسنرى ما كان من مؤلفي الاناجيل. وينبغي أن يعرف فيما يخص عشرات السنين التي تلت رسالة المسيح بأن الاحداث لم تجر مطلقاً كما قيل، وان مجيء بطرس إلى روما لم يركز أبداً الكنيسة على أسسها، بل على العكس لقد شاهدنا خلال أكثر من قرن، بين الفترة التي ترك فيها المسيح هذه الارض وحتى منتصف القرن الثاني، معركة بين اتجاهين: بين ما يمكن أن نسميه المسيحية البولسية، واليهودية ــ المسيحية.

وهنا يذكر الكاردينال دانييلو كتابات يهودية ــ مسيحية مترجماً الرؤى عن مسيح هذه الطائفة التي شكلت ابتداء حول الرسل، انجيل اليهود [منقولاً عن طائفة يهودية ــ مسيحية مصرية] ورسامو كليمان، والمعارف الكليمنتية ورؤيا يعقوب الثانية وانجيل توما وإلى هؤلاء اليهود ــ المسيحيين يجب من دون ريب ربط أقدم آثار الادب المسيحي التي يذكرها بالتفصيل الكاردينال دانييلو.

«ولم تكن هيمنة اليهودية ــ المسيحية طيلة القرن الاول للكنيسة فقط في القدس وفلسطين، بل كانت رسالتها منتشرة في كل مكان سابقة على الرسالة البولسية. وهذا ما يفسر، لماذا شكلت رسائل بولس دونما **انقطاع حضاً على نزاع**» أولئك كانوا الخصوم أنفسهم الذين كانوا يرون في كل مكان من جالاتيا، وكورنثيا وكولوسيكا وروما وانطاكية.

والساحل السوري الفلسطيني من غزة حتى انطاكية هو يهودي ــ مسيحي «كما تشهد به أعمال الرسل وكتابات كليمنتين» أما في آسيا الصغرى، فقد ثبت وجود اليهود ــ المسيحيين في الرسائل الى الكالات والكولوسيين لبولس. وقد عرفت كتابات بابياس باليهودية ــ المسيحية لفريجي. وأول رسالة من بولس للكورنثيين نوهت في اليونان بوجود يهود ــ مسيحيين في أبولوس على الخصوص. ان روما «مركز مهم» كما تفيد رسالة كليمان وراعي هرمياس. ويشكل المسيحيون في رأي سوباتون وتاسيت مذهباً يهودياً. ويذهب الكاردينال دانييلو إلى أن أول أَنْجَلَةٍ لافرقيا كانت يهودية ــ مسيحية. وأن أنجيل العبرانيين وكتابات كليمان الاسكندري يرتبطان بها.

من المهم أن نعرف هذه الوقائع لندرك في أي جو من النزاع بين الطوائف كتبت الاناجيل، ولتوضيح أن النصوص التي بين أيدينا اليوم بدأت بعد كثير من تعديلات المصادر، حوالي سنة ٧٠، في العصر الذي كانت فيه الطائفتان المتنافستان في ألد الخصام، وان اليهود ــ المسيحيين، كانوا ما برحوا هم المسيطرين، ولكن في سنة ٧٠ انقلب الوضع مع الحرب اليهودية وسقوط القدس. والكاردينال دانييلو يوضح السقوط كما يلي:

لما كان اليهود قد ضعفوا في الامبراطورية، فقد اتجه المسيحيون الى الانفصال

اليهودية، قضي عليهم في الغرب سريعاً. وتتبعت آثارهم في الشرق من القرن الثالث حتى الرابع، وبخاصة في فلسطين والجزيرة العربية وشرق الاردن وسوريا، وبلاد ما بين النهرين، واندمج بعضهم في الاسلام الذي كان وريث قسم من تعاليمهم، بينما ارتبط البعض الاخر بأرثوذكسية الكنيسة الكبرى محتفظين بترسب ثقافي سامي. ولا يزال شيء منها موجوداً في الكنيسة الاثيوبية والكلدانية».

أيضاً «مذكرات الرسل». وتأكيدات من هذا النوع، هي مع الاسف منتشرة بشكل يكفي أن تكون معه معلومات الجمهور الكبير عن تاريخ مجموعة الاناجيل خاطئة.

وقد ظلت الأناجيل تشكل كلاً طيلة أكثر من قرن، بعد نهاية رسالة المسيح، وليس في وقت سابق. والترجمة المسكونية للتوراة تحدد الوقت الذي منحت فيه الاناجيل الاربعة سمة النص القانوني بأنه في حوالي سنة ١٧٠.

وسنرى أيضاً بأن تأكيد جيستان الذي يصف كتّابها بالرسل لم يعد مقبولاً اليوم.

بينما يؤكد أ. تريكو، بالنسبة إلى تاريخ تحرير أناجيل متى ومرقس ولوقا بأنها قد كتبت قبل السنة السبعين. وهذا غير معقول، اللهم الا فيما يخص مرقس. وهو يجتهد بعد كثيرين في أن يبرز كتاب الاناجيل كرسل أو أصحاب للمسيح. وبهذا يقدم تاريخ تحريرها فيجعله قريباً جداً من العصر الذي عاش فيه المسيح. وأما بالنسبة إلى يوحنا الذي أخبر عنه أ. تريكو بأنه عاش حتى سنة ١٠٠ تقريباً، فقد اعتاد المسيحيون بمناسبات رسمية، منذ القدم، أن ينظروا إليه على أنه قريب جداً من المسيح. غير أنه من الصعب التأكيد بأنه كاتب الانجيل الذي يحمل اسمه. فالرسول يوحنا [مثل متى] عند أ. تريكو، وعند شراح آخرين، هو الشاهد المعتمد المختص فيما قصه من الوقائع، بينما غالبية النقاد لا يتبنون الافتراض الذي يعتبر بمقتضاه محرر الانجيل الرابع.

وإذا لم يكن بالامكان اعتبار الاناجيل الاربعة، موضوع البحث، «كمذكرات» للرسل أو لصحابة المسيح، فما هو أصلها اذن؟!

ذكر كولمان في كتابه «العهد الجديد»(١) في هذا الموضوع، ان الانجيليين ما كانوا إلا «المعبرين عن رأي الجماعة المسيحية البدائية التي ثبّتت الرواية الشفوية... فقد ظل الانجيل خلال ثلاثين أو أربعين سنة موجوداً بشكل عام بصورة شفوية. وعليه فإن الرواية الشفوية هي التي نقلت على الخصوص كلمات

---

(١) Presses universitaires de Frances 1967 .

الاناجيل. مع أنا على العكس نستطيع قراءة ما يلي:

«انه لا يخفى على أحد، بأن بين الكتابات المقدسة حتى كتابات العهد الجديد، امتيازاً بارزاً مستحقاً للاناجيل، اذ تُمثّل الشهادة العظمى على حياة وتعليم الكلمة المتجسدة وهي منقذنا. وقد حفظت الكنيسة دوماً وفي كل مكان الاصل الرسولي للاناجيل الاربعة. وما وعظ به الرسل في الحقيقة بناء على تعليمات المسيح أنفسهم والناس الذين أحاطوا بهم قد نقلوه الينا بالهام الهي من الروح في كتابات هي أساس الايمان لمعرفة الانجيل ذي الاشكال الاربعة في متى ومرقس ولوقا ويوحنا».

«وقد أكدت أمنا الكنيسة المقدسة، وتؤكد بحزم وبمثابرة عظمى أن الاناجيل الاربعة التي أكدت دونما تردد صفتها التاريخية، تنقل بأمانة ما فعله وعلمه المسيح ابن الله [1] طيلة حياته بين الناس من أجل السلام الخالد حتى اليوم الذي رفع فيه الى السماء.. فالكتاب المقدسون ألفوا الاناجيل الاربعة بحيث يكشفون لنا فيها دوما عن المسيح أشياء حقيقية وصادقة».

هذا هو التأكيد دونما اشتباه لامانة النقل بواسطة الاناجيل لافعال وكلمات المسيح.

ولا نجد مطلقاً تطابقاً بين هذا التأكيد الصادر عن المجمع والتأكيد الصادر عن الكتاب المذكورين سابقاً، وعلى الخصوص الاب كَتَنْقِسّر الذي يقول:

«لا ينبغي الأخذ حرفياً بالأناجيل، فهي «مكتوبة بالمناسبة» أو «للنضال» «أوردها الكتاب خطياً روايات جماعاتهم عن المسيح».

ان الاناجيل نصوص «تندمج في أوساط مختلفة، ملبية حاجات الكنائس معبرة عن تفكير في الكتب المقدسة، مصححة الأخطاء، ومجيبة حتى في المناسبة على حجج الخصوم. هكذا جمع الانجيليون كل ما نقل اليهم رواية وكتبوها حسب

---

(١) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً القائل: ﴿ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من اله إذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه عما يصفون، عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾ المؤمنون آية ٩١-٩٢. (المترجم).

انجيل متّى

يشغل انجيل متّى المكانة الاولى بين الاناجيل الاربعة، في ترتيب تقديم كتب العهد الجديد. وهذا مثبت تماماً لأن هذا الانجيل، في صورة ما، ليس إلا امتداداً للعهد القديم. انه قد كتب ليعرف بأن «عيسى عليه السلام يكمل تاريخ اسرائيل» كما يفيد شراح الترجمة المسكونية للتوراة، التي سنقتطف منها استعارات واسعة. ولذلك فان متّى يذكر دوماً بمقتبسات من العهد القديم ليظهر أن عيسى «عليه السلام» هو مسيح اليهود المنتظر.

يبدأ هذا الانجيل بنسب المسيح[1] ويرجعه إلى ابراهيم بواسطة داود. وسنرى فيما بعد خطأ النص المسكوت عنه من عامة الشراح. على أن نية متّى كانت واضحة بأن يقدّم دفعة واحدة، بهذا السرد، الاتجاه العام لكتابه. انه يتابع نفس الفكرة مبرزاً دائماً موقف عيسى «عليه السلام» من القانون اليهودي المرتكز على الاسس الكبرى التالية: صلاة، صوم، صدقة.

يريد عيسى «عليه السلام» أن يوجه تعليمه أولاً، وبالافضلية، إلى شعبه، فيقول الى الاثني عشر رسولاً: «لا تسلكوا طريقاً إلى الوثنيين، ولا تدخلوا مدينة للسامريين[2]، بل اذهبوا نحو الخراف الضالة من آل اسرائيل» [متى ١٠، ٥-٦] «لم أرسل إلا إلى الخراف الضالة من آل اسرائيل» [متى ١٥، ٢٤] وفي ختام الانجيل يعرض متى لكل الاوطان رسالة تلاميذ المسيح الاوائل معطياً اياهم من هذا التوجيه «فاذهبوا وتلمذوا جميع الامم» [متى ٢٨، ١٩] ولكن ينبغي تفضيل الذهاب نحو «بيت اسرائيل» ويقول أ. تريكو عن هذا الانجيل «من

---

(١) سنعالج التضاد مع النسب في انجيل لوقا في فصل خاص.

(٢) كانت التوراة والاسفار الخمسة مرجع قانون السامريين الديني. وكانوا ينتظرون ظهور المسيح. وكانوا أمناء على أكثر ملاحظات اليهودية. ولكنهم اسسوا معبداً مضاراً لمعبد القدس.

يستشف منه محاورة كتابية ضد اليهودية المعبدية الأرثوذكسية للفريسيين كما يتم ظهورها في المجموعة اليهودية في جامينا حول السنوات ٨٠. في هذه الظروف كثير من الكتاب هم الذين يؤرخون الانجيل الاول للسنوات ٨٠-٩٠ أو قبل ذلك بقليل. ولا يمكن الوصول إلى وثوق كامل في هذا الموضوع. فهل يناسب، نظراً لعدم التعرف بدقة إلى اسم الكاتب، الاكتفاء ببعض الخطوط المرسومة في الانجيل ذاته؟ فالكاتب يعرف بمهنته، وهو حال كونه ملماً بالكتابات المقدسة والروايات اليهودية، وعارفاً وموقراً وسائلاً بقسوة رؤساء شعبه الدينيين، ومتجاوزاً كخبير في فن التعليم وفي تعريف سامعيه بعيسى «عليه السلام»، ملحاً دوماً على العواقب التطبيقية لتعليمه، يجيب نوعاً ما ببيان أديب يهودي، أصبح مسيحياً وسيد بيت «الذي ينزح من كنزه الجديد والقديم» كما يذكر متى في [١٢، ٥٢]. اننا بعيدون جداً عن العامل في مكتب كفرناحوم المدعو ليفي من قبل مرقس ولوقا، والذي أصبح أحد الرسل الاثني عشر.

ان العالم كله متفق على أن متى كتب انجيله نقلاً عن مصادر مشتركة مع مرقس ولوقا. ولكن روايته اختلفت، وفي مسائل أساسية كما سنراه فيما بعد. ومع ذلك فقد استخدم متى انجيل مرقس استخداماً موسعاً، في الوقت الذي لم يكن فيه تلميذاً لعيسى «عليه السلام» [كولمان].

ويلاحظ بأن متى تصرف بالنصوص بحرية جادة فيما يخص العهد القديم عند ذكر نسب عيسى «عليه السلام» الذي صدر به انجيله، فأدخل في كتابه روايات لا تصدق. كما وصفه الاب كَتَّفِسِّر في المؤلف المشار إليه سابقاً في حادث قيامة عيسى «عليه السلام» بخصوص الحرس، وذكر استحالة قصة الحراس العسكريين للقبر «هؤلاء الجنود الوثنيون» الذين «لم يذهبوا للتقرير إلى رؤسائهم في التسلسل التدريجي، بل إلى كبار الكهنة الذين دفعوا لهم الاجر ليفتروا الاكاذيب» وزاد أيضاً «وينبغي الامتناع عن الهزء. فقد كانت نية متى محترمة جداً لأنه يدمج على طريقته احدى المعطيات القديمة للرواية الشفوية في مؤلفه المكتوب. ولكن إخراجه يبقى لائقاً «بعيسى المسيح النجم»[١].

---

(١) فيلم اميركي عن عيسى متنكر لتاريخه.

ويسكت شراح الاناجيل غالباً أمام هذه الواقعة. أما الاب روغيه فيبرز الاستحالة لأنه يقول بأن عيسى «عليه السلام» «لم يبق في القبر» إلا ثلاثة أيام [بينها يوم واحد كامل فقط] وليلتان. ولكنه يضيف «ان العبارة جامدة ولا تعني غير ثلاثة أيام» وانه لما يخيف ملاحظة اتجاه بعض الشراح لاستخدام مثل هذه الحجج التي لا تثبت شيئاً في الوقت الذي يرضي الفكر فيه بالايعاز بأنه يمكن أن تكون مثل هذه الفاحشة ثمرة غلطة كاتب!

وزيادة عما يختص به انجيل متى من الاستحالات، فإنه قبل كل شيء انجيل طائفة يهودية ــ مسيحية، هي على خلاف مع اليهودية، وانفصال عنها، مع بقائها في خط العهد القديم. وله من وجهة نظر تاريخ اليهودية ــ المسيحية أهمية معتبرة.

انجيل مرقس

انه أقصر الاناجيل الاربعة وأقدمها، ولكنه ليس كتاب رسول. وكل ما فيه أنه كتاب محرر من تلميذ رسول.

لا يعتبر كولمان مرقساً تلميذاً لعيسى «عليه السلام». ولكنه ينبه مع ذلك أولئك الذين يبدو لهم أن نسبة هذا الانجيل إلى الرسول مرقس أمر مشكوك فيه فيقول: «ان متى ومرقس ما كانا ليستخدما هذا الانجيل كما فعلا لو لم يعلما بأنه مؤسس حقيقة على تعليم رسول». ولكن هذه حجة غير قاطعة. ويذكر كولمان أيضاً في دعم تحفظه الذي يبديه، الروايات المكررة في العهد الجديد «ليوحنا الملقب بمرقس» ولكن هذه الروايات لا تتضمن ذكر كاتب الانجيل. ونص مرقس ذاته لا يذكر الكاتب.

ولقد ساق فقر المعلومات في هذه النقطة، بعض الشراح الى اعتماد ما يضحك من التفاصيل على أنها عناصر ذات قيمة، مثل هذا التفصيل، بدعوى أن مرقس هو الانجيلي الوحيد الذي نقل في روايته للآلام حادث شاب يلبس قطعة قماش، ولا يلبس سواها، فلما أوقف ترك القطعة وهرب عاريا [مرقس ١٤، ١٥-٥٢] فقد استخلص البعض من هذا أن الشاب المعني، يمكن أن يكون مرقس «التلميذ

«ثم صعد الجبل ودعا الذين أرادهم، فأقبلوا عليه. فأقام منهم اثني عشر يصحبونه فيرسلهم مبشرين ولهم سلطان يطردون به الشياطين. وأقام الاثني عشر وهم سمعان ودعاه صخراً» [مرقس ٣، ١٣-١٦].

انه بالنسبة لبعض الوقائع على خلاف مع متّى ولوقا كما ذكرنا ذلك سابقاً بمناسبة آية يونان. بل هو أكثر من ذلك بمناسبة آيات عيسى «عليه السلام» التي أعطاها للناس خلال رسالته، يروي حادثة لا تصدق [٨، ١١-١٢].

«فأقبل الفريسيون وأخذوا يجادلونه طالبين آية من السماء ليجربوه. فتنهد من أعماق نفسه وقال: «ما بال هذا الجيل يطلب آية؟ الحق أقول لكم؟ لا يجعل لهذا الجيل آية. وتركهم وعاد إلى السفينة فركبها وعبر إلى الشاطىء المقابل».

أنه تأكيد آت من عيسى «عليه السلام» نفسه. وهو ينوي بألا يأتي أي عمل يمكن أن يبدو خارقاً للعادة. ولذلك فإن شراح الترجمة المسكونية للانجيل حين يندهشون من اعلان مرقس بأن عيسى «عليه السلام» لن يعطي سوى آية واحدة هي آية يونان [انظر انجيل متى] يرون «من الغريب» أن يقول مرقس:«ان هذا الجيل لن تكون له آية» في الوقت الذي لاحظوا فيه بعد ذلك «المعجزات التي يقدمها عيسى «عليه السلام» نفسه كآيات» [لوقا: ٧، ٢٢-١١-٢٠].

ان مجمل انجيل مرقس معتمد رسمياً بأنه قانوني. ومع ذلك فالقسم الاخير منه [١٦-٩، ٢٠] يعتبره الكتاب المحدثون عملاً مضافاً. وتشير إلى هذا، الترجمة المسكونية اشارة قاطعة.

ان هذا القسم الاخير غير موجود في المخطوطين الكاملين للاناجيل واللذين هما أكثر قدماً [وهما مجموعة الفاتيكان ومجموعة سيناء] اللذين يرجعان إلى القرن الرابع. وقد كتب كولمان بهذا الصدد يقول: «ان مخطوطات يونانية أكثر حداثة وبعض نصوص اضافت الى هذا القسم خلاصة رؤى ليست لمرقس، بل هي مأخوذة من أناجيل أخرى» والواقع أن نصوص هذا القسم الأخير المضاف، كثيرة. وفي النصوص مقطع طويل تارة، ومقطع قصير أخرى [الاثنان واردان في الترجمة المسكونية] وتارة يكون المقطع الطويل مقترناً باضافة، وطوراً المقطعان..

وثنياً اهتدى إلى المسيحية. ويظهر اتجاهه ازاء اليهود بسرعة، كما يشير إلى ذلك كولمان، إذ يقول: إن لوقا يتجاهل الايات الاكثر يهودية لدى مرقس، ويبرز كلمات عيسى «عليه السلام» ضد كفر اليهود، وعلاقاته الحسنة بالسامريين الذين كان يكرههم اليهود، في حين، كان متّى يجعل المسيح ــ كما رأينا ــ يطلب من الرسل البعد عنهم. وهذا مثل رهيب من كثير، يوضح لنا أن الانجيليين كانوا يقوّلون المسيح ما يناسب رؤاهم الشخصية فيقدمون لنا بحسن نية أكيدة وبقناعة شخصية من كلمات المسيح، النص الذي يتفق مع وجهة نظر الطائفة التي ينتمون إليها.. وكيف يمكن أمام مثل هذه الواضحات، الانكار بأن الاناجيل لم تكن «كتب النضال» أو «المناسبات» التي تثأر؟ وفي المقابلة بين السلوك العام لكل من انجيل لوقا وانجيل متّى كان الدليل على ذلك!

من هو لوقا؟ لقد أريد تعريفه بأنه طبيب حامل لهذا الاسم. ذكره بولس في بعض رسالاته. والترجمة المسكونية تشير إلى أن «الكثيرين قد تأكدوا من المهنة الطبية لكاتب الانجيل من دقة وصفه للمرضى». وهذا التقدير مبالغ فيه، لأن لوقا لم يعط «وصفات» من هذا النوع بالذات «والمفردات التي يستعملها هي ذاتها التي يستعملها كل انسان مثقف في زمانه». ولقد كان يلازم بولس في سفره رفيقٌ اسمه لوقا. فهل هو نفس هذه الشخصية؟! هذا ما يراه كولمان.

هذا ويمكن تقويم تاريخ انجيل لوقا بتأثير عوامل مختلفة. فهو قد استعان بانجيل مرقس ومتّى. ويبدو كما نقرأ في الترجمة المسكونية، انه عرف حصار القدس وتهدمها من قبل جيش تيتوس سنة ٧٠، الامر الذي يجعلنا نقدر بأن هذا الانجيل اذن متأخر عن هذا التاريخ. غير أن الدراسات الحاليّة تحدد تحريره بأنه كان غالباً، ما بين سنتي ٨٠ و٩٠، وان كان كثيرون ينسبونه إلى تاريخ أقدم.

وروايات لوقا المتعددة تبرز اختلافات هامة مع روايات سابقيه. وقد أشرنا سابقاً إلى بعضها، والترجمة المسكونية تشير إليها في الصفحة ١٨١ وما بعدها. ويذكر كولمان في كتابه العهد الجديد صفحة ١٨، روايات من انجيل لوقا غير موجودة في غيره ولا يقصد بذلك النقاط التفصيلية.

على أن أخبار انجيل لوقا عن طفولة عيسى «عليه السلام» هي خاصة به،